# عراق كامل شياع، الوطن المهزوم

"ما حدث في العراق حدّد اختياراتي ومصيري. ولئن وقفت بعيداً عن زمن الوطن المجنون، فقد أنشأت معه علاقة ضدية ولّدتْ كل ما له معنى في حياتي «.
كامل شياع

حيدر سعيد

انتهت المغامرة.
هكذا، بطلقة مكتومة الصوت، أنهت حياة صديقي ورفيقي وزميلي كامل شياع. طلقة ربما لم تكن تستهدف شخصَ كامل، بقدر ما كانت تستهدف معنىً ما يمثله، انتماء ما، أو أيديولوجيا ما، أو موقفا ما.
لم يكن إنهاء حياة كامل مقصودا لذاته، بل كان رسالة، قاسية وبربرية. أرواح الناس في بلادنا أصبحت رسائل. ثمة آلاف الجهات الغامضة، التي ترسل رسائل ملتبسة، عبر أرواح الضحايا، المجهولين والمعلومين، إلى جهات غير محددة.

روح كامل كانت رسالة. ولكن، مَن أرسلها؟ وإلى مَن؟ وما معناها؟ ومن أجل ماذا؟ أي معنى في كامل استهدفت تلك الطلقة الخرساء؟ كامل الشيوعي؟ المعارض السابق لنظام صدّام حسين؟ المنفيّ؟ رجل الدولة؟ العلماني؟.
ستمر الأيام ولن يعرف أحد مَن قتل كامل؟ وما هي الجهة التي خططت لقتله؟ ولمَ؟
روح كامل تلاشت في فضاء دموي ووحشي لرسائل ملتبسة وغامضة.
روح كامل تلاشت أمام شعور قاس بأننا أصبحنا غرباء في هذه المعركة، بأننا ضحايا معركة ليست معركتنا، معركة الهويات، وعقد التأريخ، والهوس الجماعي بالسلطة.
روح كامل رسمت موتنا جميعا، نحن الذين عشنا الجنون البربري الذي اجتاح بلادَنا سنتي ٢٠٠٦ و٢٠٠٧، وعشنا رعبَ أن نُقتَل لسبب قدري لم نختره، هوية، أو أصل، أو اسم. مقتل كامل كتب قصة موتنا، أطلق ما تبقى من خوفنا على أرواحنا ونحن نشاهد كيف كان يمكن أن يموت كل واحد منا. كثّف صرختنا في اسم واحد.

لم تكن الطلقة التي قتلت كامل مجرد نهاية تقليدية، لفيلم، أو بطل، أو رواية، أو ملحمة. لم تكن درسا عاديا في صناعة الخواتيم. الطلقة الخرساء تلك روت لنا كيف تنكتب النهايات التراجيدية، ليس لفرد، بل لجيل، وجماعة.
لقد جسّد كامل شياع، المثقف المنفي منذ نهاية السبعينيات، الذي اختار أن يترك أوربا ويعود إلى وطنه بعد سقوط الدكتاتورية في ٢٠٠٣ ليعمل من داخله موظفا كبيرا في وزارة الثقافة، جسّد إعادةَ تفكير بالثنائية الكلاسيكية (المثقف/ السلطة). كان يريد أن يكون لحظة توفيق بينهما. ولذلك، كان طبيعيا أن يعيد مقتله الجدلَ عن علاقة المثقف بالسلطة، حيث انفرطت الهدنة بينهما، التي مثّلها كامل، وحيث تمخض عن مقتله فهمان متعارضان: فهم المثقفين، وفهم السلطة.
غير أن القلق الجوهري الذي مثّله وعاشه وعكسه كامل، المنفيّ، هو فلسفة عودته إلى وطنه الأصلي، العراق، وتحديد معنى وجوده فيه من جديد. ربما كان انشغاله هذا ذا دوافع سايكولوجية، فهو بحاجة إلى أن يبرر، مع نفسه أولا، تركَ مواطنته الأوربية والعودة إلى بلاد جحيمية، كانت. قدرا. وطنَه الأصلي.
ومع ذلك، لم تكن هذه العودة (أو: قرار العودة)، بالنسبة له، نوستالجيا أو واجبا أخلاقيا، بل كانت تتأسس (وتنفتح به) على إعادة فلسفة معنى الوطن، والوطنية، والانتماء، والهوية. يقول كامل في نص كتبه قبيل موته: «إذا كانت هناك عودة بالنسبة لي فهي مغادرة تجربة استنفدت نفسها تدريجيا، . . . أنا شخص عاش من موقعه قصة استمرت ٢٥ عاماً. وحين بلغت تلك القصة نهايتها، عليه أن يأتي بفعل يتناسب معها، عليه أن يبحث عن حياة أخرى. وإذا لم يحدث هذا ولا ذاك، تتحول معايشته الطويلة، بما فيها من قسوة وحرمان وإصرار وأمل، ضرباً من العبث والتفاهة».
لم يكن كامل يريد أن يتحرك على وفق ثنائية (الوطن/ المنفى). غير أننا لا نملك إلا أن نتعامل مع سلسلة الثنائيات الثابتة هذه (داخل/ خارج، شرق/ غرب، أنا/ آخر، وطن/ منفى). يمكننا أن ننقد هذه الثنائيات ونشكك فيها، ولكننا في النهاية. لا يمكن إلا إن نعمل بها ومن داخلها. وهكذا، كان (الوطن) هو المقابل، العملي والواقعي، لـ (المنفى). يقول: «حينما تَهيّأ لي أن قصتي الطويلة مع المنفى طوت فصلها الختامي، انفتحت أمامي فصول أخرى تفاصيلها معوّمة، ومحمولاتها متناسخة. أين القرار وقد انكسر التعارض بين الوطن والمنفى، ونضبت الشحنة الرمزية للمكان؟ . . . سأجرّب إذن أن أبدّل المنفى بالوطن، أو أن أبدّل متاهة بأخرى. لا تهمّني كثيراً التسميات، لأن الأمر يتعلق بالمعنى. وهو ما يبدو لي واضحاً وبسيطاً».
لم يكن الوطن، بالنسبة لكامل، وطنا بالمعنى الوجداني، ترسمه ذاكرة وانفعالات ورموز، ولا هو وطن بالمعنى الأخلاقي، تحدده سياسات ومبادئ وقضايا والتزام.
وطن كامل شياع مغامرة، مغامرة ليست فقط في العيش في بلاد هي الأخطر في العالم، في غابة من العنف والموت والبربرية، بل في أن تكون هذه الأرض هي الأرض الصفر، ويكون علينا صناعتها، صناعة وجدانها وقيمها ونواميسها، صناعة إنسانها وترابها. هذه هي المغامرة.
كامل لا يحمل هوية المنفى، ولا هوية الوطن، ولا شيئا مركبا منهما، بل شيء أبعد منهما. ربما لم يُتَح لكامل شياع أن ينجز كتابا، غير أنه كتب بموته نصا فريدا عن التباس معنى الوطن.
للمقارنة، لم يستطع إدوارد سعيد، أحد أبرز منظري التباس الهوية وتعقيدها، إلا أن يموت فلسطينيا، وأن يُدفَن في لبنان، على تخوم القدس، مدينته. في حين لم يختر كامل أن يُقتَل في بغداد. لأقل: ربما لم يختر أن يموت عراقيا. أدرك كم هي صادمة هذه الجملة، وقد مرّنا أنفسنا على التعامل مع مقتل كامل بوصفه استهدافا لخيار الوطنية الذي مثّله. فمن دون شك، استطاع كامل، في أثناء عمله في دولة ما بعد صدّام حسين لخمس سنوات، أن يقدم نموذجا وطنيا، في زمان كان مفتاح فهمه والتعامل معه هو الهويات الإثنية والطائفية. وبلا شك، كانت الطلقة التي أصابته ضربة لهذا النموذج، بقصد أو بدون قصد. ربما كان القاتل يحمل أنموذجا نقيضا لنموذج الوطنية الذي يمثله كامل، وإن الأمر لا يتعدى أن يكون صراع نماذج في الوطنية. ولكن كامل شياع كان يتشكل في إطار هوية معقدة، قد تكون هويته العراقية جزءا منها فقط، وجزءا صغيرا ربما، غير أنها لم تكن عراقية محضا بكل تأكيد. وأكثر من ذلك، كان كامل يدرك تعقيد هويته. إنه وريث فلسفة تشكك في الهوية من حيث جوهرها القائم على التماثل والتطابق.
وفي النهاية، لن يبقى من كامل سوى روحه المفكّرة، التي طمحت إلى إعادة فلسفة الهوية والوطنية العراقية. هذا هو الذي سيعطيه فرادة بين كل الشهداء الذين أعطوا أرواحهم انطلاقا من التزام أخلاقي. بالتأكيد، كامل شياع أكبر من أن يُختَزَل بأنه شهيد التزام أخلاقي تجاه بلده.
العراق، بالنسبة لكامل، هو مختبر لحركة التأريخ، فرصة لأن تعيشه بجزيئاته وتفصيلاته المعقدة، بدمائه وخرابه، بتيجانه وقاعه، بأبطاله وضحاياه. التأريخ ليس نظرية، وليس فلسفة، بل واقع، ودم، وحياة. «التأريخ لا يسير في طرق ملكية»، على نحو ما يقول، وأن تكون في العراق يعني أن تكون في قاع التأريخ، تعيش معه وفيه، تراقبه وتفهمه: «أجد نفسي مسكوناً بروح متقشفة، روح بالحد الأدنى تقبل الواقع كما هو، ولا تسند لنفسها سلطة معرفية كبيرة أو تسقط عليه أوهامها أو تجرفها احتمالاته القصوى. هذا كما أعتقد ثمن الاقتراب من التاريخ كمادة حية، كحالة هشة في طور التشكل والاندثار. فلا تجربة حقيقية دون تفاصيل جزئية وملموسة، دون إزاحة أو تأجيل».
التأريخ، أيضا، مختبر لإعادة صياغة الهوية، لأن الهوية معطى سياقي، مفتوحة على التأريخ وتقلباته وصراعاته، يشكلها كقطعة من طين الصلصال.
حركة التأريخ تعيد صياغة الهوية باستمرار. ولذلك، لم يكن كامل يفكر بأن هناك هوية عراقية ثابتة ومحدّدة تأريخيا. وأيضا، ليست هناك وطنية عراقية ثابتة.
بين أواسط ٢٠٠٦ و٢٠٠٧، تبادلنا. كامل وأنا. مجموعة رسائل عن سياسة الذاكرة في العراق. في تلك المراسلات، كنتُ أفترض أن فشل الدولة في العراق هو نتيجة لفشلها في صناعة أمة، والآن، لن يكون بإمكاننا أن نعيد مشروع (الدولة. الأمة) من جديد، بل إن علينا أن نبني دولة تعكس هذا التعدد، في حين كان كامل يرى أن هناك إمكانية لـ (الأمة العراقية): «إن هذه الأمة [العراقية] التي نتحدث عنها قائمة بالقوة، أي كاحتمال، وليس بالفعل، أي كحقيقة قائمة بذاتها».
كان مشروع كامل، العائد إلى وطنه، هو إطلاق هذه (الأمة العراقية)، من القوة إلى الفعل، هو إعادة صياغة هويتها ومعنى وطنيتها. بالتأكيد، كان كامل جزءا من مشروع تأريخي (لا يصل، بالضرورة، إلى غاياته) لصناعة وطنية عراقية، لا تكون إعادة إنتاج لتقاليد الوطنية العراقية، ولا استجابة لذاكرة جريحة، وطنية تصنعها عملية تأريخية معقدة، وتُولَد من رحم العنف والفوضى والخراب والدماء. «هكذا هي الهوية: بداية دائمة وجدل لا ينقطع. وهكذا ينبغي لها أن تتجسد في العراق اليوم كي تطلق صراع الواحد والكثرة، وتعيد تشكيلنا ككائنات سياسية وكذوات ثقافية».
هنا، يمكن أن نميّز (وقد يكون كامل عمل على وفق تمييز واضح) بين إعادة فلسفة الهوية والوطنية، بالشكل الذي فكّر بهما، وبين الحاجة إلى شحن الوطنية العراقية (بالطريقة التي عاشها بعد عودته إلى العراق) خيارا وحيدا للخروج من الخراب الذي خلّفته حروب الهويات.
غير أن كامل لم يرد أن يُقتَل في بغداد، بل أراد أن يحيا فيها، بغداد الحلم الذي يمكن أن يُصنَع، بغداد البداية الدائمة، لا بغداد الذاكرة. ولذلك، كان قتل كامل. بالنسبة لي في الأقل. هزيمة لاختيار أن تكون في عنف وطنك، . . . هزيمة لفكرة الوطن.
ثمة تداخل معقد بين أن نفهم مقتل كامل بأنه تضحية لا بد من أن ندفعها، أو أن نفهمه بأنه دفع حياته ثمنا لهذا الاختيار، أو أن نفهمه بأنه هزيمة لهذا الاختيار. هل يمكننا أن نختار فهما واحدا من دون أن نكون مدفوعين بدوافع سياسية أو أيديولوجية؟ أو من دون أن يكون هذا التفسير تعبيرا عن مخاوفنا وعقدنا؟ من دون أن تتورط الذات المفكرة في سياسة المعنى؟
الوطن ما زال بعيدا عن حلمنا بإعادة فلسفة معنى وطنيته، وما زال عصيا على نموذجنا المحلوم في الوطنية. ثمة صراع نماذج في الوطنية. وها هو ذا نموذجنا يُهزَم.
لا تبدو هذه الجملة صالحة لأن تكون ختاما لهذه المرثية.
لكنها وُلدت من الطلقة الغادرة التي أشعرتنا بأنها أقوى منا، أقوى من كلماتنا وفلسفاتنا. وُلدت من انكسار حلمنا في الزمان الذي كنا نحلم بأنه سيكون زماننا. وُلدت من اللاعدالة التي سمحت بأن يُقتَل مثقف، مفكر، على يد قاتل مأجور، ربما لم يتعلم حتى الأبجدية. وُلدت من أنني لا أستطيع أن أفلسف مقتل كامل بهذه البربرية. وُلدت من عجزي عن أن أستعيد بلاغة عصور ثورية لم أعرفها. وُلدت من أنني لم أقوَ بعد على الإيمان بالجملة التي تركها لنا كامل، كأنما لنفهم مقتله بهدوء أكثر: «التأريخ تحرك، ولا بد من ضحايا».

## تلويحة المدى

### وردة على سياج «المتحف الوطني العراقيّ»

شاكر لعيبي

لابدّ من الإلحاح على ضرورة الكشف عن سُرّاق ومُحطمي آثار المتحف العراقيّ.
لو كانوا من شواذ الناس فلدينا دليلٌ قاطعٌ على غياب الحسّ المدينيّ لدى شرائح لا يُستهان بها في المجتمع العراقي. لو أنهم كانوا من جنود الاحتلال والصحفيين الأجانب فيتوجب إقامة دعوى قضائية لدى المحاكم الدولية، لو أنهم من أنصار النظام السابق فلقد أذاقوا البلاد الأمرَّين. في جميع الحالات هناك ضرورة قصوى لكشف من يستحق الكشف وعدم طيّ الصفحة البتة مهما كلف الثمن.
يمكن لمتصفح الشبكة الأنترنيتية أن يتابع، بألم مشوب بالرعشة، بضعة مواقع عالمية تهتم بمصائر القطع المفقودة. الكثير منها من الفن الصافي، وغالبتها إرثٌ روحيّ يكشف عن هواجس ورغبات وقِيَم وجماليات سُكّان بلاد الرافدين. تبدو تلك المواقع وكأنها مهمومة أكثر منا نحن المعنيين، عراقيين وعرباً، بحكمة التاريخ وأولوية الجمال. بعضنا يكتفي بالتحسّر والآخر يقوم بتهريب التاريخ عبر الحدود وتلويث الجمال بقيم رأس المال. تكشف تلك المواقع غياب الآثاريين العرب عن الفعل الاجتماعي أو السياسي أو الحضاري، ولعلها تفضح الجهل المعمَّم بتاريخ الفن الذي هو جزء من التاريخ العام.
ولكي لا يكتفي المرء بإطلاق الكلمات الحماسية، وريثما تنجلي بعض الغمّة عن قلوبنا، يتوجب القيام بشيء إيجابي لكي يأخذ المتحف العراقي الحزين مكانته من جديد في الضمير الوطني. ها هنا اقتراحٌ صغيرٌ نضعه أمام مديره: أن تقوم إدارة المتحف برفده بقطع رافدينية جديدة مطروحة للبيع في أسواق الفن العالمي. سيستغرب المرء من الكمية الكبيرة من تلك القطع المعروضة للبيع، وسيتساءل، بسذاجة، عن مصادر تلك القطع. إنها من القطع غير المسروقة وبعضها يمتلك قيمة استثنائية. أمامنا الآن، على سبيل المثال فحسب، موقعان عاديان للوهلة الأولى، الأول لغاليري اسمه (غاليري صادق Sadigh gallery) في نيويورك وآخر اسمه (MuseumSurplus.com) من بين المئات من المزادات والغاليرهات في أمريكا وإنكلترا وأستراليا وفرنسا وسويسرا الأكثر شهرة التي تتاجر بالفن الرافديني. الموقع الأخير يعرض الآن قطعة شبيهة ببعض القطع المسروقة من المتحف العراقي. أما الأول فإنه يعرض تحت العنوان(MESOPOTAMIAN) للبيع ما يقارب الـ٢٨٢ قطعة صغيرة الحجم تتراوح أسعارها بين ١٠٠ إلى ٥٠٠ دولار (هناك عمل واحد بلغ ثمنه ٢٥٠٠ دولاراً): منحوتات وجرار وخزف وأدوات معدنية وأختام أسطوانية وغير ذلك مما يمكن اقتناؤه من طرف الخواص. هذه القطع أيضاً يتوجب استعادتها بالشراء. في مزادات لندن وسويسرا خاصة هناك قطع رافدينية في غاية الأهمية.

> ولكي لا يكتفي المرء بإطلاق الكلمات الحماسية، وريثما تنجلي بعض الغمّة عن قلوبنا، يتوجب القيام بشيء إيجابي لكي يأخذ المتحف العراقي الحزين مكانته من جديد في الضمير الوطني

أنْ يقوم المتحف العراقي بتشكيل لجنة من الخبراء والاختصاصيين هدفها الرئيسي جرد المواقع المتخصصة ببيع فنون بلاد الرافدين، ومن ثم جرد القطع الفنية وفرز الاستثنائي من العاديّ منها، لكي يُصار بعد ذلك إلى تخصيص المال اللازم لشرائها، هو أمر سهل وهيّن في عالم الاتصالات المُعوْلَمة. جميع متاحف العالم تقوم دورياً بعمليات الشراء هذه، من أجل رفد مجاميعها وسدّ الثغرات التاريخية التي قد تعانيها أعمالها، لكن أيضاً من أجل حفظ وجمع التراث الوطني في مكانه الملائم. ففي كل مزايَدة مهمة، كما نعلم، يكون محافظو بعض أشهر المتاحف العالمية أو من ينوب عنهم من أوائل الحاضرين في مزادات ساوذبيس أو كريستي اللندنية لهذا الهدف بالضبط.
الوضع الراهن، المُضطرب، في العراق لا يستوجب تأخير مُبادرة شجاعة وخطوة سبّاقة، لعل ما نقترح هنا في صلبها. من دون خطوة مماثلة، سيظلّ المتحف العراقي تحت رحمة من لا قلوب لهم، دولاً ومهرّبين ومافيات التجارة بالآثار عابرة القارات. لن يمنع المقترحُ الحالي، بحال من الأحوال، المتحفَ من متابعة وملاحقة آثاره المسروقة والسعي الحثيث لاستعادتها.
نحسب أن المتحف العراقي لن يبخل بالمال اللازم الكفيل بشراء الأعمال الجديدة، الثمينة والنادرة، في هذه اللحظة في الأقل، وهو يضخّ المزيد من الثقة في آليات عمله ويوسّع آفاقه. الحزن وحده لا يكفي. وردة تُذلى على سياج المتحف هي علامة وفاء، من العراقيين الطيبين، لكنها علامة مؤقتة فحسب، لا بد من أن يرافقها فعلٌ من نوع مختلف.

## محطات ثقافية

### نادي الشعر في البصرة يستأنف برنامجه الثقافي

البصرة /عبد الحسين الغراوي

بعد توقف استمر عدة شهور استأنف نادي الشعر في البصرة برنامجه الثقافي الاسبوعي ذكر ذلك الشاعر حبيب السامر نائب رئيس النادي واضاف ان برنامجا ثقافيا ابداعيا شهريا اعدته اللجنه الثقافية في النادي مشيرا ان الاسبوع الاول من البرنامج يتضمن قراءات شعرية لعدد من شعراء البصرة الشباب منهم صفاء عبد العظيم ،نعيم جبار،حسن هادي حسام البطاط وعلي محمود خضير.
مضيفا ان الاسبوع الثاني من البرنامج يتضمن محاضرة بعنوان الشعر والفنون يقدمها الناقد التشكيلي خالد خضير مبينا-ان البرنامج الثقافي لنادي الشعر متنوع وشامل مؤكدا ان الفقرات لاتقتصر على القراءات الشعرية فقط بل يتعداه الى الدراسات النقدية والمتابعات الابداعية للمنجز الشعري الشبابي إضافة الى ان النادي سيقوم ضمن برنامجه الثقافي الاسبوعي فقرة شاعر وكتاب يتناول تجربة الشاعر حامد عبد الصمد البصري يقدمه في الاسبوع الثقافي الرابع من شهر تشرين الاول الشاعر مجيد الموسوي موضحا ان البرنامج الثقافي يقام مساء كل يوم اثنين في مقر الحزب الوطني الديمقراطي..

### كويلو يشيد في معرض فرانكفورت بتوزيع الكتب عبر الانترنت

المدى/وكالات

قال الروائي باولو كويلو خلال معرض فرانكفورت للكتاب يوم الثلاثاء ان توزيع نسخ رقمية من الكتب مجانا عبر الانترنت قد يعزز بدلا من أن يضر مبيعات الكتب التقليدية.
وقال البرازيلي صاحب روايتي «الخيميائي» و«١١ دقيقة» ان على الناشرين أن يستغلوا الفرص التي تتيحها الشبكة بدلا من اعتبارها عدوا.
وبحسب مسح أجراه منظمو أكبر معرض للكتاب في العالم فان بيع الكتب عبر الانترنت هو أكثر التطورات أهمية في صناعة النشر على مدى الستين عاما الاخيرة.
ويرى ٤٠ في المئة ممن شاركوا في المسح الذي شمل ألف مهني بالصناعة من أكثر من ٣٠ بلدا أن المحتوى الالكتروني سيتجاوز مبيعات الكتب التقليدية بحلول عام ٢٠١٨ وان كان ثلث المشاركين توقعوا عدم حدوث ذلك قط.
ويوزع كويلو نسخا رقمية من كتبه مجانا عبر الانترنت منذ سنوات وهي ستراتيجية يعتقد أنها عززت مبيعات كتبه في روسيا بالاقل.
وأبلغ مؤتمرا صحفيا «يقرأون صفحات قليلة ويفكرون .. يا الهي .. من الاسهل بكثير شراء كتاب بدلا من قراءته على هذه الشاشة .. ومن ثم يذهبون ويشترون الكتاب.»
وقال كويلو انه يطمح للوصول الى أكبر عدد من القراء في أنحاء العالم مساهمة منه في تحقيق ديمقراطية الافكار التي بدأها جوتنبرج عندما اخترع الطباعة في القرن الخامس عشر والتي انتقلت الى مرحلة جديدة عن طريق الانترنت.
وقال «الشبكة .. تفرض طريقة جديدة للمشاركة في الافكار وتحدي النماذج الاقتصادية القديمة.»